الأنا في معلقة امرئ القيس

د. يحيى أحمد محمد الزهراني

الأستاذ المشارك بالكلية الجامعية بالقنفذة – جامعة أم القرى

مقدمة

لقد شكل حضور الأنا في الشعر العربي اهتمامًا كبيرًا من قِبَلِ النقاد والدارسين، فظهورها في الشعر لا يقتصر على عصر معين، ولا شاعر بعينه؛ فالأنا تحدد دلالات الذات المبدعة القادرة على ترجمة الشعور الداخلي إلى تجربة أدبية مؤثرة تخرج إثرَ معركة نفسية تعترى المبدع وتثقل عليه كيانه حتى يخرج لنا تجربته في قالب محكم من الإبداع والإحساس العميق.

فالشعر من أهم مقومات الشخصية العربية بوصفه ديوان العرب، ولقد كان له وظيفتان؛ ذاتية يعبر فيها الشاعر عن نفسه، كما نلحظ عند المتنبي؛ فقد كان استعماله لصيغة (أنا وإني وصيغة المتكلم) كثيرة في أشعاره، وجهر بذلك أمام السلاطين والأمراء، فلم يكن قبله من يستطيع أن يعتني بوجوده وكيانه جهرًا بغير السلاطين والأمراء "[1] أما الوظيفة الثانية فهي جماعية يعبر بها عن المجتمع، فالقيم التي يحملها الفرد عبارة عن إرث ثقافي اجتماعي صارت مع الزمن ثوابث أخلاقية ورموز فنية منغرزة فينا، فالعرب منذ القدم احتفوا بالشعر والشاعر وشكل ذروة اهتمامتهم حتى بات لسان القبيلة الناطق الذي يدون أخبارها ويرفع ذكرها، ولما كان له هذه المنزلة جعلت في نفس الشاعر حبا للأنا فمجد نفسه" [2].

وقد وردت كلمة الأنا في لسان العرب بمعني "اسم مكني وهو للمتكلم وحده، وإنما يبنى علي الفتح فرقًا بينه وبين أن التي هي حرف ناصب للفعل والألف الأخيرة، إنما هي

(١)علي الشوك.(١٩٦٠). الثورية في شعر المتنبي .مجلة المثقف .عدد١٧.ص١٤.

(٢) د/ تغريد عدنان محمود الربيعي .(٢٠١٢). الأنا والأخر في شعر الفرذدق.العدد٩.جامعة بغداد كلية التربية .

لبيان الحركة في الوقف" [٣]، وقد وردت في المعجم الوسيط بمعني (ضمير رفع منفصل للمتكلم أو المتكلمة)[٤].

وليس من اليسير الوقوف على التعريف الاصطلاحي للأنا فهو مفهوم مراوغ يستعصي تحديده بدقة؛ لأنه يدخل في مشاركة كبيرة لجملة العلوم الإنسانية (علم الفلسفة – علم النفس – علم الاجتماع) فهو يتخذ من كل منحنى معني مغاير عن الآخر "[٥]، ولكن ما يهمنا في هذا الصدد هو مفهوم الأنا في الشعر فتكون (الأنا) هي الذات الشاعرة فلا تكاد قصيدة من القصائد تخلو من ذكر الأنا متحدثة أو موضوع حديث، ليشكل حضورها البارز في الشعر العربي قديمه وحديثه كمًّا كبيرًا يستدعي الاهتمام والدراسة؛ فمن الشعراء من جعل قصائده أشبه بالاعترافات الشخصية العاكسة لحياته المريرة التي اكتوي بنيرانها، فعبرت عن معاناته وآلامه وأحزانه وكانت" بمثابة فضاء شعري يعاد فيه إنتاج الأنا الشاعرة، أي سيرته الذاتية من خلال أنا المتكلم "[٦] ويشكل الحزن" سمة من سمات الكائن الحي الذي يحيط به مجموعة من الأحاسيس والمشاعر التي لا يمكن كتمانها على مر الزمان، وربما يكون الحزن منهل الإبداع وتحديدًا في الشعر، فقد قيل البشر يخبئون مشاعرهم تحت جلودهم، ولكن الشعراء لا يحتملون ذلك فمشاعرهم وحزنهم فوق جلودهم؛ فالحزن سمة إنسانية عامة وفى الشعر خاصة؛ إذ تبدو أكثر بروزاً وأوسع سريانا في النفس "[٧].

والقارئ لمعلقة امرئ القيس يجد أنه أمام سيل من الدموع، ودفق من الهموم وجبال من المصائب، وحبائل مقطوعة من الوصال والهجر، فالشاعر ابن بيئته يستمد من أنوائها ومعالمها وأحداثها عالمه الشعري، ويتنفس من الهواء المحيط ما يناسبه فتختزن ذاكرته

(٣)ابن منظور(٢٠٠٠).**لسان العرب**.ط١.بيروت لبنان: دار صادر. ص ٣٨.

(٤)إبراهيم مصطفي وآخرون (المعجم الوسيط) المكتبة الإسلامية للطباعة والنشر تركيا (د.ت) صـ ٢٨

(٥) عباس يوسف حداد تجليات الأنا في شعر بن الفارض ط١ – ٢٠٠٠م – الناشر رابطة الأدباء في الكويت – سلسلة كتاب الرابطة ١٠ صـ ١٩٣

(٦) عز الدين إسماعيل.(٢٠٠٦). كل الطرق تؤدي إلي الشعر.ط١.لبنان .الدار العربية للموسوعات .ص٦٩.

(٧) محمود محمد أسد ملامح الحزن في معلقة الجاهلية حلب . سوريا ميدل أيست أونلاين..

أحاسيس كثيرة يفردها ويطرحها داخل نصه الشعري الذي تحاكي فيه الأنا ذاتها وصويحباتها في الرحلة.

لذا جعلت من هذه المعلقة ميدانا للبحث والكشف عن الأنا وتجلياتها وأسرارها؛ فالمعلقة وصاحبها يحتلان مكانة رفيعة في الأدب العربي وتاريخه ونقده. وقد أسميت هذا البحث ب" الأنا في معلقة امرئ القيس "هادفا إلى الكشف عن الأنا وتجلياتها وأسرارها وعلاقتها بالآخر في هذه المعلقة بوصفها نصا أدبيا عربيا رفيع المستوى؛ فصاحب المعلقة يتبوأ في كتب النقد العربية المرتبة الأولى في الطبقة الأولى بين شعراء العربية قديما. وقد اعتمدت المنهج الوصفي القائم على قراءة النص وتحليله.

وقد جعلت البحث في محاور أربعة تسبقها هذه المقدمة وتعقبها خاتمة. وهذه المحاور هي:

المحور الأول: تجليات الأنا في معلقة امرئ القيس.

المحور الثاني: الأنا والآخر في معلقة امرئ القيس.

المحور الثالث: الأنا وتداعي الذكريات في معلقة امرئ القيس.

المحور الرابع: الشكل الأسلوبي للأنا في معلقة امرئ القيس

المحور الأول:

تجليات الأنا في معلقة امرئ القيس

تتجلى الأنا في معلقة امرئ القيس في صورتين، إحداهما (الأنا) الحزينة المنكسرة المتألمة، والأخرى: (الأنا) المحبة العاشقة العابثة.

أولا: (الأنا) الحزينة المنكسرة المتألمة.

جعل امرؤ القيس الأنا في معلقته مستترة ومنكسرة حزينة تعاني الألم والوجع، فكانت هذه الأنا المأزومة هي المركز أو النواة التي بني عليها تجربته الشعرية، فصارت الأنا داخل النص هي المنبع الذي تصدر عنه التجربة، وهى المصب الذي ترد إليه.

ومن خلال قراءة معلقة امرئ القيس يتبين لنا أن عدد أبيات القصيدة اثنان وثمانون بيتًا، ظهر من خلالها ضمير المتكلم حيث الأنا الشعرية المتجلية عبر هذه الضمائر العائدة على المتكلم تشكو وتنطق أحزانها وآلامها داخل النص من خلال مجموعة من العلاقات الضمائرية مع الآخر الذي لا يغادر الأنا بقدر ما يحيل إليها، ويؤكد حضورها الدائم المستمر فيها؛ فيقول الشاعر عبر أبياته في مقدمته الطللية التي نلمح فيها الأنا أحيانًا ترد ضمن المعنى دون أن تكون ظاهرة لفظًا أو كتابةً، أو نلحظها من حالته الحزينة من خلال المعني.

قِفَا نَبْكِ من ذِكرى حبيبٍ ومَنْزِلِ بسِقْطِ اللِّوى بينَ الدَّخول فحَوْملِ

فقد جاء الحزن هنا حارًا تحتضنه الحسرة والدموع، تهيجه الذكريات، حيث أجاد امرؤ القيس في التعبير عن الوقوف والاستجداء والتوسل، حيث جاء تعبيره عن الحزن الدفين بأساليب مختلفة في مطلع المعلقة، وهو حزن لم تستطع الأنا الشاعرة كتمانه، فعبرت الأنا عن حزنه عن طريق القلق والهم والحيرة واليأس والشجون، فهذا الحزن له مساربه ومسالكه، وتكون الصدمة التي ألهبت الحزن في نفس الأنا الشاعرة هذه الأماكن الخاوية التي هجرها أهلها، فتلك الأماكن القاسية تدعو القبائل للرحيل والبحث عن منهل العشب والماء والاستقرار، فيكون مشهد الوداع صعبا على نفس الأنا الشاعرة فيولد عندها الحزن والأسي والشجون والبكاء.

فتوضح فالمقراة لم يَعفُ رسمها لما نسجتْها من جَنُوب وَشَمْأَلِ

ترى بَعَرَ الأرْآمِ في عَرَصـــاتِها وقيعانهـــا كأنـــه حبّ فلفـــل

كأني غَداةَ البَيْنِ يَوْمَ تَحَمَلّـــوا لدى سَمُراتِ الحَيّ ناقِفُ حنظلِ

وُقوفاً بها صَحْبي عَليَّ مَطِيَّهُمْ يقُولون لا تهلكْ أسىً وتجمّل[٨]

إن هذه الافتتاحية تتلاءم مع الحالة الشعورية القائمة في ذات الأنا" لأن الوقوف علي الأطلال يعبر عن مشكلة اختيار الفضاء والفناء المتناهي "[٩] فتعاني الأنا هنا من الصراع النفسي الذي جعلها في حالة من الحزن؛ فهذه الأبيات تسرد وتفسر لنا حالة الأنا عند امرئ القيس، حيث جاءت في المقدمة الطللية منكسرة ومنهزمة حزينة تعاني من الحزن الشديد علي فراق الحبيب، ومن هنا نحس الشاعر ساردًا لأحداث عاشها في الماضي، ويطمح أن يعيشها في الحاضر، فجاءت أحاسيس الشاعر الوجدانية معبرة عنها، وبذلك تغيرت مستويات الأداء الشعري لتبحث عن الأنا الحزينة وتكشف خصوصيتها طالبة المواساة من الآخرين، حسب الحاجة المفسرة لقهر الذات وحجم العواطف فهو يصف أيام لهوه من خلال الأنا المحبة العاشقة، ثم تستجلب البكاء هنا للراحة النفسية؛ حيث إن للبكاء والدموع تأثيرًا كبيرًا على راحة النفس والتخفيف من الحزن والأسي الذى سيطر على الشاعر بسبب ما أثارته في نفسه تلك الأطلال من ذكرى الأحبة، لذا كان" وقوف الشعراء علي الأطلال شريطا من الحزن والأسي والمرارة والقلق، وقد تناولوه بأساليب متقاربة، وهذا أمر طبيعي لقربهم من البيئة المتشابهة في المناخ والعادات "[١٠]، وهي أوضاع مؤثرة ومدعاة للحزن والهم، وهذا بدا جليًا في المعلقة؛ فالحزن مرتبط بطبيعة الشاعر وشريط حياته وموقفه من المحيط الذي يتحكم فيه، فينعكس ويؤثر عليه، حيث كان امرؤ القيس لاهيًا عابثًا، يعيش كما تحلو له الحياة، وهيهات للحياة أن تستقر، فقصة والده معروفة وما آل إليه، ولذلك نجد الموقف الشعوري الذي تنبعث منه القصيدة هو الإحساس

(٨) محمد أبو الفضل إبراهيم .(١٩٩٠).ديوان امرؤ القيس.ط٥.القاهرة.دار المعارف .ص١٠.

(٩) محسن الفرسان .معلقة امرؤ القيس في نظر المعاصرين. منتديات ستار تايمز.

(١٠) محمود محمد أسد.(٢٠١٤). ملامح الحزن في المعلقات الجاهلية .حلب سوريا.ميدل أيست أونلاين.٢٠١٤/١٠/١٩م

بالضعف والانكسار في" زوال دولة كندة مملكته ومطاردة المنذر بن ماء السماء له حتي وصل القسطنطينية "[١١].

ويشير دكتور جواد على" أن مطاردة المنذر لامرئ القيس كانت أعنف شيء أصاب الشاعر بعد مقتل والده "[١٢] من هنا امتلأت نفسه بالتوتر والضيق وبلغ به الإحساس بالعجز حدا عطل قدرته علي تجاوز وضعه المتأزم، ولم يجد من سبيل ينتهجه إلا الحُلم الذي تتمثل فيه القوة والانتصار ليعوض ما افتقده من قوة تمكنه من تحقيق ما يصبوا إليه. " وليس الموقف الشعوري أزمة جنسية عميقة كما يتصور بعض الكتاب "[١٣]، يقول يوسف اليوسف عن ذلك في المقدمة الطللية التي فسرها من الاتجاه النفسي: " يتجلى قمع العلاقات الجنسية الحرة علي أشدة حيث يبتدئ الألم في كلية حضوره، وتبرهن هذه المقدمة على موقف الذات الجاهلية من القسر فيرد يوسف اليوسف فعل البكاء والاستبكاء إلي تجليات الاحتجاج على قمع الأيروس تمامًا كما المكان الذي يمثل في نظره المحتجز، فالمكان لا يأخذ أبعادًا جمالية بقدر ما يؤكد على موضوعية أصول القهر ومعاناة الأنا"[١٤].

والألم من أكبر الأحاسيس والمشاعر التي تحاصر الأنا التي تحاول الذات التخلص منها، والشكوى والبوح أحد الوسائل للتخلص من تلك الطاقة السلبية المكبوتة في الأنا العميقة، وعن طريق تحليل الأبيات الأولى للقصيدة، ومن خلال ذلك يمتزج الحب بالبكاء، وسنرى كيف تتجلي الأنا في معاناتها، وكيف تصبح المعاناة إحدى الوسائل المسيطرة على نفسية الشاعر، فيتجلى الألم عند امرئ القيس في حبه وفراقه لمحبوبته فاطمة الملقبة بعنيزة التي رحلت وتركت في نفسه ذكريات أليمه عاشها الشاعر وحيدًا غريبًا مطاردًا بعد موت أبيه حجر فقد كان" أبوه ملكًا على بنى أسد وغطفان وقد نقم أهلها عليه فقتلوه، وأوصي رجلًا أن يخبر أولاده بمقتله، وقد بلغ الخبر امرئ القيس، وكان مع نديم يشرب

(١١) رفعت سلام.محمدعبدالمطلب.(١٩٩٧).استنطاق الخطاب الشعري.ط١.القاهرة.الهيئة العامة للكتاب.ص١٤

(١٢) محمود محمد شاكر.(١٩٩١).أسرار البلاغة لعبد القاهر الجرجاني.ط١.جده. دار المدني.ص٤٣

(١٣) د. حسن طبل٠،(١٩٩٠).أسلوب الالتفات في البلاغة القرآنية. بدون طبعة.ص٢٣.

(١٤) يوسف اليوسف.(١٩٧٥).تحليل معلقة امرئ القيس، سوريا. مجلة المعرفة السوريا .عدد١٦٥,١٦٣.

الخمر ويلاعبه النرد فقال: تطاول علينا دمون دمون إننا معشر يمانون وإننا لأهلنا محبون، وأضاف: الخمر علي والنساء حرام، حتى أقتل من بنى أسد مائة وأجز نواصي مائة، ثم قال: ضيعنى صغيراً وحملنى دمه كبيرًا، لا صحو اليوم ولا سكر غدًا، اليوم خمر وغدا أمر، وأقسم أن يثأر لأبيه ممن قتلوه"[١٥] وربما كان بكاءه على الأطلال بسبب فقده لملك أبيه، فانطلق لسانه باكيًا ساردًا ماضيه في معلقته، ومن ثم كانت القصيدة عنده هي" أنا الشاعر، وقد جعل من ذاته موضوعًا لذاتها "[١٦].

وهناك ملمح من ملامح الحزن في المعلقات الجاهلية يتجسد من خلال الوقوف على الأطلال، حيث يمثل الطلل أهم البدايات التي ينطلق منها الشاعر في قصيدته، فهي من أهم العلامات عند الشاعر الجاهلي على اقتراب النهاية ودنو أجله، حيث انتشر الحزن في المطالع الطللية وفى أغلب المعلقات، وهذا واضح من الحديث عن المرض والهزيمة وآثار الديار الخربة التي كانت في الماضي عامرة. من هنا يكون الطلل هو العلامة الأساسية التي ينتقل منها الشاعر إلى حتمية الفناء، فالطلل الذى كان عامرًا في الماضي أصبح حاضره عافيًا باليًا، فيسترجع الشاعر صدى أحداث مضت، ومن ثم يعرج إلي الحزن فتساوره الأشجان فتجعل نفسيته محطمة منكسرة محاصرة بالمعاناة والألم، فعبر امرؤ القيس عن أحزانه وآلامه بهذه الأبيات فيقول:

قفا نبك من ذِكرى حبيب ومنزل ... بسِقطِ اللِّوى بينَ الدَّخول فحَوْملِ

فتوضح فالمقراة لم يَعفُ رسمهاَ ... لما نسجتْها من جَنُوب وَشَمْـأَلِ

ترى بَعَرَ الأرْآمِ في عَرَصاتِهـا ... وقيعانهـا كأنـه حبّ فلفـل

كأني غَداةَ البَيْنِ يَوْمَ تَحَمَلـّوا ... لدى سَمُراتِ الحَيّ ناقِفُ حنظلِ

وُقوفاً بها صَحْبي عَليَّ مَطِيَّهُمْ ... يقُولـون لا تهلكْ أسىً وتجمّل

وإنَّ شفائي عبرةٌ مهراقـةٌ ... فهلْ عند رَسمٍ دارِسٍ من مُعوَّلِ[١٧]

(١٥) امرؤ القيس- حياته- سماته- خصائص شعره WWW.HASHIR.NET,LITREATURE-AHD-ART.

(١٦) عزالدين إسماعيل، (٢٠٠٦). كل الطرق تؤدي إلي الشعر.ط١. لبنان . الدار العربية للموسوعات ص٦٩.

(١٧)الديوان ص١١,١٠.

في البيت الأول يستبد الحنين بالشاعر إلى الأيام الخوالي التي يستمد منها قوته، حيث استدعت الأنا صور الأصحاب لإظهار المعاناة والشكوى لهم، فهو يستدعى صوره من واقع الحياة الصحراوية متخذًا من الآخر شاهدًا على شدة معاناتها. ونلحظ أن هذه الأبيات تسير نحو التخلي عن ضمير المتكلم المفرد ظاهريا، ولكنه يأتي مضمرا مع ضمائر المخاطبة التي ساهمت على إقامة الحوار بين الأنا والآخر المحبوبة، ومن ثَمَّ" تبدأ الجملة فعلية وهو فعل أمر يدل على الالتماس فهو يطلب من صاحبيه أن يشاركانه في حزنه، والعربي لا يطلب المشاركة إلا إذا كان المصاب جللا "[١٨] وهذا إن دل على شيء، فإنما يدل على الحالة النفسية التي كان عليها الشاعر عند نظم القصيدة، فهو ضعيف عاجز لا يستطيع أن يفعل شيئاً بمفرده فمضي يطلب المعونة من الآخرين، " وإذا كانت لفظة قفا تدل على السكون فإن نبك تدل على الجزم والانقطاع، فيظل الزمن جامدًا عند لحظتي الوقوف والبكاء، وإن كان الفعل نحويًا يدل على التجدد والاستمرار، فإن لفظة نبك مقيدة بقفا، فإذا انتفى الأول انتفى الثاني، وذكر حبيب ومنزل لإفادة الشمول والعموم، بمعني أنه يطلب مشاركتهم لأدني سبب، ومن ثَمَّ يتضح من الأبيات كيف يصبح بكاء الأطلال بكاء لساكنيها، حيث نجد أن خراب الديار بعد رحيل أهلها هو أكثر المعاني الشائعة في الشعر الجاهلي وهو مرتبط بالرثاء، فالشاعر في الأبيات السابقة يستوقف صاحبيه ليساعداه بالبكاء على أطلال محبوبته في هذه المواقع من البيئة الصحراوية (سقط اللوي، الدخول، حومل، توضح، المقراة، لم يعف رسمها، لما نسجتها من جنوب وشمال) فهذه المواضع عزيزة في نفسية الشاعر، لذا فإنه يحددها تحديدًا دقيقًا، فهي التي تذكره بأيامه مع أحبته، ولكنها الآن تبعث في نفسه اللوعة والأسى، إذ يراها خالية من ساكنها وأهلها، وقد تبدلت معالم هذه الديار فالظباء والوحوش تسرح في جنبتها وتمرح، فشكلت الطبيعة لدي الشاعر مرآة صادقه لحياته ونفسيته ومحيطه فهو ينهل من بيئته الصحراوية الأماكن والحيوانات والمعاني، ومن هنا نلاحظ أن الشاعر قد تشبث بالأشخاص المتمثلين في أصحابه لكي يبكوا معاً ويشكو لهم معاناته، وأيضًا نجده قد تشبث بالجماعات فذكر الأماكن الأحب على

(١٨)حسين العتوم .شرح المعلقات العشر .ص٢٣٤.

قلبه وهى (منزل، حومل وغيرها)، وأكثر من ذكرها ليتلذذ بذلك، ثم يعود إلى الماضي حيث أدخل لم يعف رسمها، فالرسوم لم تندثر تمامًا، بل باقية ونحن نحزن ولو زالت لاسترحنا. ويزيده أسى أنها أصبحت مسرحًا للظباء بقوله:

ترى بَعَرَ الأرْآمِ في عَرَصاتِها وقيعانها كأنه حبّ فلفل(١٩)

ثم تتحول الجملة الفعلية إلى اسمية بقوله:

كأني غَداةَ البَيْنِ يَوْمَ تَحَمَلّوا لدى سَمُراتِ الحَيّ ناقِفُ حنظلِ (٢٠)

هنا الجملة اسمية تدل على الدوام والثبوت، وكأن حاله الدائم هو البكاء الغزير، كما تجري الدموع من ناقف الحنظل، وزاد الشاعر لفظا جديدا هو (كأن) فعمد إلى التشبيه لتجسيد الحالة المعنوية إلى حسية ملموسة، والجملة الاسمية تتراسل مع حالته الدائمة التي يعيشها بالحزن والذكرى والحسرة.

ومن مثيرات أشجان الشاعر بالإضافة إلى خلو الديار من ساكنيها وسكونها ومرح الظباء والوحوش فيها أنه لو هبت عليها الرياح من جنوب وشمال تكشفها تارة، وتسترها تارة أخرى، وهو ما استدر ما فيه من الدموع الغزار حتى بلت من فرط الصبابة محمل سيفه.

فَفاضَت دُموعُ العَينِ مِنّي صَبابَةً عَلى النَحرِ حَتّى بَلَّ دَمعِيَ مِحمَلي (٢١)

وذلك جعل أصحابه يقفون لمواساته ويطلبون منه التجمل بالصبر مخافة الهلاك، ولكنه لا يصيخ لهم إذ البكاء شفاؤه مما هو فيه، غير أنه يستدرك أن لا فائدة من البكاء عند رسوم دوارس فيقول

وُقوفاً بها صَحْبي عَليَّ مَطِيَّهُمْ يقُولون لا تهلكْ أسىً وتجمّل (٢٢)

(١٩) الديوان ص١٠.
(٢٠) الديوان ص١١.
(٢١) السابق ص١٠.
(٢٢) السابق نفسه.ص١٠.

إن حالة الشاعر هنا كانت تستدعى البث والشكوى والحنين والبكاء، فلقد وقف صحبه بتلك الديار يوم رحل منها أهلها، وأوقفوا مطاياهم لأجله، شفقة به ورغبة فى التخفيف عنه يواسونه (لا تهلك أسي وتجمل) التماسا. وبناءً عليه يتضح أن "بناء الجملة يتناسب مع حالته النفسية فكثرت فيها عناصر التحويل، فنجد الاستغناء بالمصدر وقوفا عن الفعل وقف والتغيير في ترتيب الجملة وقوفا وأصلها وقوف صحبي مطيهم بها عليّ، ثم زيادة المصدر وقوفا يفيد توكيد الحث" (٢٣)

وإنَّ شفائي عبرةٌ مهراقةٌ فهلْ عند رَسمٍ دارِسٍ من مُعوَّلِ(٢٤)

هنا يبحث الشاعر عن الشفاء، فهو بحاجة إلى توكيد ذلك واحتياجه له، فهو يريد أن يشفى مما أصابه من الحزن والأسي، ولكنه يضعف مرة ثانية ويطلب من الآخرين البكاء، فهل عند رسم دارس من معول؟

فاستغراقه في الذكرى لم يقف عند طلب الشفاء، بل أوغل في حالات الوجدان الماضية، فمضى يطلب حالة تتشابه مظاهرها معه فيقول:

كَدَأْبِكَ مِنْ أُمّ الحُوَيْرِثِ قَبْلَهَا وَجَارَتِهَا أُمّ الرّبَابِ بِمَأسَلِ(٢٥)

هنا إرادة الأنا الإسراع في طلب ما تريد، فاكتفي بخطاب الواحد، حيث إنه أراد أن يخرج من حالة الكآبة والحزن فقال:

إذا قامتا تضوع المسك منهما. نسيم الصبا جاءت بريا القرنفل(٢٦)

وهنا تتغير الحالة النفسية الحزينة للأنا الشاعرة إلى حالة من السعادة والفرح والابتهاج، ولكن ذلك كان ظاهرياً فتذكر أم الحويرث وأم الرباب، فكان تذكره في جو من الكآبة والحزن وسرعان ما عاد إلى حزنه مرة أخرى فقال:

فَفاضَت دُموعُ العَينِ مِنّي صَبابَةً عَلى النَحرِ حَتّى بَلَّ دَمعِيَ مِحمَلي(٢٧)

(٢٣) أيوب جرجس العطية. رؤية جديدة في معلقة امرؤ القيس ص٥
(٢٤) الديوان ص١٠.
(٢٥) الديوان ص٩.
(٢٦) الديوان ص٩.
(٢٧) الديوان ص١٠.

وهنا عادت الأنا إلى معاناتها وحزنها، فزاده صبابتها ليبين علة انسكاب الدموع على نحره، وهنا يأتي حديث امرئ القيس عن الأطلال حارًا متدفقًا ملتاعًا معبرًا عن مدى حزنه وألمه، لذا استغرقت الوقفة الطللية للمعلقة حوالى ثمانية أبيات عبرت فيها الأنا عن معاناتها وأحزانها.

ويشكل الليل عنصرًا مهما في حياة الأنا وخصوصيتها، حيث عبر الليل عن هموم وأحزان الشاعر، فكان الليل أحد المؤثرات التي أثرت على الأنا حيث عانى من هول الليل وثقله على نفسه، فامرؤ القيس بوصفه لطول الليل، وازدحام الهموم عليه "وتضجره منه كأنما اختط بهذا السبيل لمن أتي بعده من الشعراء، ولا شك أن ليل الشاعر هنا هو ليل العاشقين، (وليل العاشقين طويل) كما يقول أبو الطيب لأن الذكريات فيه تبدأ بالتجمع والتجلي مؤثرة على نفسية الشاعر"[٢٨] حيث كان ليله كئيبا ثقيلا أرهق نفسه، وآلمنا معه، ونقلنا إلى مناخات إنسانية عامة فوصف ليله الطويل مخاطبه ومحاوره، دون إخفاء يأسه، واليأس أقسي من البكاء والدموع، ويأتي غالبًا بعد البكاء فدمعه كان في مطلع المعلقة، ولكنه في شكواه تجاوز الدمع إلى ملامسة الجوانب النفسية وطرحها دون حجاب وستر، ويبرز ذلك في مقدرته الفنية على تقديم الحالة التي يعيشها بمرارة، فقال شاكيًا هذا الليل في أبياته:

وليل كموج البحر أرخى سدولهُ ... عليَّ بأنواع الهمـــــوم ليبتلي
فَقُلْتُ لَهُ لما تَمَطّى بصلبـــــــه ... وأردَف أعجازاً وناءَ بكلْكـــلِ
ألا أيّها اللّيلُ الطّويلُ ألا انْجَلي ... بصُبْحٍ وما الإصْباحَ مِنك بأمثَلِ
فيا لكَ من ليلْ كأنَّ نجومـــهُ ... بكل مغار الفتل شدت بيذبلِ
كأن الثريا علّقت في مصامها ... بأمْراسِ كتّانٍ إلى صُمّ جَنْدَلِ [٢٩]

تتنبه الأنا في خضم هذا الصراع الذاتي إلي وضعها ومصيرها المحتوم "فالقصيدة إذن، هي صراع الذات /الأنا الساردة" [٣٠] لذا هذا المقطع يفصح عن نغمة حزينة كئيبة، حيث يأتي الإيقاع بنغمة موسيقية حزينة تقوم على إيقاع داخلي يفسر التموجات النفسية المنفعلة والمنكسرة للشاعر التي تفصح عن خصوصية الأنا الشاعرة، فهو يشكو طول

(٢٨) علي حسين العتوم، (١٩٨٠). المعلقات العشر توثيق ودراسة.ص٣٠٠.
(٢٩) الديوان ص١٠.
(٣٠) سوسن البياتي.(٢٠٠٥). الأنا الساردة فاعليتها النصية في الخطاب الشعري. بلاد النرجس .جريدة الاتحاد.

الليل الذي ذكره بهمومه وأحزانه، فتظهر الأبيات القلق والضيق والمرارة التي يحس بها الشاعر "ففي القسم الأول من النص ركز الشاعر على وصف ليله ومعاناته النفسية فيه فقال: (ورب ليل يحاكي أمواج البحر في توحشه ورهبته وتراكم ظلامه أرخي علي أستاره السوداء مع أصناف همومه ليختبر ما عندي من الصبر علي شدائد الدهر، فقلت له حين مد ظهره، وازدادت أواخره طولا، وثقلت أوائله، انكشف أيها الليل عن ضياء وصبح مشرق، ولكني تذكرت أن الصبح ليس أحسن منك، فالهموم مستمرة ليلًا ونهارًا، كما إنه يعجب من بطء هذا الليل الطويل المظلم، فكأن نجومه قد ربطت بحبال متينة إلي جبل يذبل، فهي لا تتحرك من مكانها، وهذا يشخص ما في نفس الأنا من قلق نفسي ويأس وملل (كأن نجومه... شدة بيذبل) الاستعارة فيه تمطى بصلبه، فهو يتخيل الليل الممتد الطويل جملًا يتمطى، ثم حذف المشبه به الجمل، وأبقي شيئًا من لوازمه وهى الامتطاء، والاستعارة المكنية في أردف أعجازا، وناء بكلكل فهما تعبيران عن ازدياد أواخر الليل طولا، وثقل أوائله، وكل ذلك تشخيص لما في نفس الشاعر من غم وهم، فالشاعر فى حزنه وقلقه ويأسه تنتابه الهموم، ولا يعرف للنوم طعم وهو المحتاج إليه، وبالمقابل لا يريد النهار لأنه ملاحقه بالهموم وهو الهارب من النور إلى الظلمة للانفراد بـــالأنا التي تعيد تذكر الماضي مبعث حزنه لما كابده بعد مقتل أبيه وفراق الأحبة.

ألا أيّها اللّيلُ الطّويلُ ألا انْجَلي بصُبْحٍ وما الإصْباحَ مِنك بأمثَلِ(٣١)

الشاعر هنا تكالبت عليه الشدائد، حتى هجره النوم، وجافى مرقده، فتمنى أن ينجلي الليل، ويرمي بظلامه عنه، حتى ينعم بالصباح، ثم راح يراجع موقفه (وما الإصباح منك بأمثل) فأنت وهو سيان والأمر هنا للتمني (وليل كموج البحر أرخي سدوله) شبه الليل بالخيمة أرخت سدولها للدلالة على الهم والحزن، والمشبه الليل في ظلامه، والمشبه به هو موج البحر، ووجه الشبه هو الظلمة والعتمة الموحية بالحزن المولدة للأسى.

فيا لكَ من ليل كأنَّ نجومهُ بكل مغار الفتل شدت بيذبلِ(٣٢)

(٣١) الديوان ص١٣.
(٣٢) الديوان ص١٣.

شبه نجوم الليل في ثباتها وعدم حركتها، كما لو كانت قد شدت بحبل مفتول قوي إلى جبل

كأن الثريا علّقت في مصامها بأمْراسِ كتّانٍ إلى صُمّ جَنْدَلِ (٣٣)

شبه ثبات الليل بأمراس لأنه يتخيل طوله كأن نجومه مشدودة بحبال كتان إلي صخور صلبة وإنما استطال الليل لمعاناته من الهموم، فتتشكل" لوحة الليل من نظائر دلالية هي الشكوى من الليل وليل كموج البحر، كأن نجومه، شدت بيذبل، وتمني زواله، حتى ينجلي بصبح، والحسرة وما الإصباح منك بأمثل) وهى نظائر تؤلف لوحة متناظرة هي الضعف، وتتراءى علاقة انفصام ثالثة بين الذات المتكلمة والليل، فالليل يبدو عملاقًا لا سلوى فيه ولا سكن، وهذه اللوحة تنسجم فيما بينها في خط دلالي واحد وهو الضعف والحزن "(٣٤) فذاته موصولة بعاطفة ملكت عليه نفسه ومشاعره، فكشف ذلك عن خصوصية الأنا ودواخلها واضطرابها، ونجد ذلك في صورة الليل الذي يحمل بين طياته معنى الهم والحزن والوحدة والتوجس من الحاضر والمستقبل، وبذلك يكون الشاعر قد استطاع أن يعبر ويكشف عن خصوصية أناه الحزينة الملتاعة من الألم والمعاناة، فجاءت أبياته محملة بمشاعر الحزن والحنين للمحبوبة وديارها.

ثانيا: (الأنا) المحبة العاشقة العابثة.

يشكل الحب عنصرًا مهما في معلقة امرئ القيس، فكان يُشكل عليه فيضا من الأحاسيس والمشاعر التي تأسر الأنا تجاه الآخر، فكانت معلقته وليدة ذلك الحب الذي يكنه امرؤ القيس لمحبوبته فاطمة الملقبة بعنيزة، فيقول متوددًا لمحبوبته وراجيًا منها الوصال أو الهجر الجميل.

أفاطِمُ مَهْلًا بَعْضَ هذا التَّدَلُّلِ وإنْ كُنْتِ قَدْ أَزْمَعْتِ صَرْمِي فَأَجْمِلِي

وَإنْ تكُ قد ساءتكِ مني خَليقَةً فسُلّي ثيابي من ثيابِـكِ تَنْسُـــلِ

أغَرّكِ مني أنّ حُبّـــكِ قاتِلي وأنكِ مهمـــا تأمري القلب يفعـــل

(٣٣) الديوان ص١٧.

(٣٤) أيوب جرجس العطية. رؤية جديدة في معلقة امرؤ القيس .ص٥.

ومَا ذَرَفَتْ عَيْناكِ إلا لتَضْرِبي بسَهمَيكِ في أعشـــــارِ قَلبٍ مُقَتَّلِ[٣٥]

الأنا العاشقة تكون في معاناة دائمة مع الآخر (محبوبته)، لأنها ترفضه وتستعصى عليه، رغم تودده إليها تارة واستعطافها تارة أخرى، فتوجه الأنا اللوم إلى المحبوبة التي انصرفت عن حبه الذى كاد أن يقتله ويفتك به، ويطلب الشاعر من محبوبته، وقد ملكت عليه قلبه أن ترفق به ولا تتمادى في تعذيبه وللتأثير في نفس فاطمة التي قتلت فؤاده ومازالت تتمنع عليه، يعرض أمامها مغامراته مع النساء ولا يتوقف حضور الأنا المحبة العاشقة في معلقه امرئ القيس على الحضور المباشر لضمير المتكلم، بل هناك حضور غير مباشر تتجلي الأنا العاشقة من خلاله عبر الآخر، فتصوغه التجربة الشعرية من خلال الأبيات فيقول:

فقالت يمين الله ما لكَ حيلةٌ وما إن أرى عنك الغوايةَ تنجلي [٣٦]
هصرتُ بِفودي رأسها فتمايلت عليَّ هضيمَ الكَشحِ رِيّا المُخَلخَلِ
إلى مثلها يرنو الحليمُ صبابة إذا ما اسبكَرّتْ بينَ درْعٍ ومِجْوَلِ
تَسَلَّت عِماياتُ الرِجالِ عَنِ الصِبا وَلَيسَ فُؤادي عَن هَواكِ بِمُنسَلِ

تتجلي الأنا الشاعرة المحبة تجليًّا واضحًا ومقصودًا في أبيات المعلقة، حيث لا يظهر الآخر (الحبيبة) بصورة تشكيلية مستقلة في المعلقة، يمكن محاورته ومحادثته، بل يظهر دائمًا عبر تجليات الأنا ودلالتها، فالأنا المحبة موصولة برؤية عاطفية جامحة ملكت على ذات الشاعر نفسه، وبناءً على ذلك يطالعنا في إيقاع البيت الأول صوت المرأة الخافض المنكسر الذي يأتي بعده صوت الذات الشاعرة خافضًا أيضًا، يتلاءم مع ياء المتكلم الدالة على الذات الحقيقة المتعلقة بباطن النفس الشاعرة، وتحاول" الأنا الشعرية المتجلية عبر هذه الضمائر العائدة علي المتكلم أن تصل إلى معرفة حقيقة الآخر ومدي حبه للأنا

(٣٥) الديوان ص١٠
(٣٦) الديوان ص١٤

الشاعرة داخل النص من خلال مجموعة من العلاقات الضمائرية مع الآخر الذي لا يغاير الأنا بقدر ما يحيل إليها ويؤكد حضورها الدائم المستمر فيها "[٣٧]

وتفخر الأنا العاشقة بحبها للنساء ومغامراتها الجنسية المتعددة مع أم الحويرث وأم الرباب وبيضة الخدر التي وصفها وصفًا دقيقًا من خلال معلقته الغزلية فيقول في عشيقاته:

كدأبكَ من أمِّ الحويَرثِ قبلـــــها وجارتها أمّ الربابِ بمأســـــــل
فَفاضَت دُموعُ العَينِ مِنّي صَبابَةً عَلى النَحرِ حَتّى بَلَّ دَمعِيَ مِحمَلي
فمِثلِكِ حُبْلى قد طَرَقْتُ ومُرْضعٍ فألهيتُها عن ذي تمائمَ محـــــول
إذا ما بكى من خلفها انْصَرَفَتْ لهُ بشِقٍّ وَتحتي شِقُّها لم يُحَـــــوَّلِ[٣٨]

هذه الأبيات تسرد لنا أفعال الأنا العاشقة وما قامت به من مغامرات مع النساء، فكانت أفعال الحركة هي الطاغية، والدالة على حركة الأنا وسيطرتها على الآخر (المعشوقة)، والآخر المقصود هنا هو المخاطب (ضمائرياً) من قبل الأنا بـ(أنت)، أو المشار إليه بضمير الغائب (هو وهي) وهنا تفخر الأنا بهذه المغامرات فيسرد الشاعر في شكل قصصي مغامرته مع بيضة الخدر التي لم يصرح باسمها، بل وصفها وصفًا دقيقًا أفاض فيه فقال:

وبيضةِ خدر لا يرامُ خباؤها تَمَتّعتُ من لَهْوٍ بها غيرَ مُعجَلِ
فجِئْتُ وقد نَضَّتْ لنَوْم ثيابَها لدى السِّترِ إلاَّ لِبْسَةَ المُتَفَضِّلِ
مُهَفْهَفَةٌ بَيْضاءُ غيرُ مُفاضَةٍ ترائبها مصقولةٌ كالسجنجل
كِبِكْرِ المُقاناةِ البَياضِ بصُفْرَةٍ غذاها نميرُ الماء غير المحللِ[٣٩]

من خلال مطالعة الأفعال التي جاءت في هذه الأبيات نجد أنها ماضوية تحكي خط سير الفاعل الأنا المحبة والعاشقة في ذاته وسلوكه بعد تحولها من حال إلي حال، فهذه الأبيات تسرد لنا أفعال الأنا التي قامت بها، كما يصف الشاعر هذه الفتاة في أحد عشر بيتًا

(٣٧) عباس الحداد .(٢٠٠٠).تجليات الأنا في شعر بن الفارض.ط١.الكويت. رابطة الأدباء الكويت.ص٢٠٥.
(٣٨) الديوان ص١٠,١١
(٣٩) الديوان ص١١,١٣

من القصيدة، وحق لهذه الفتاة بهذه الصورة التي حوت الحسن من أطرافه أن تصيب فؤاد الحليم، إذا ما عرضت له فيقول:

إلى مثلها يرنو الحليمُ صبابةً إذا ما اسبكَرّتْ بينَ درْعٍ ومِجْوَلِ[٤٠]

وكأنه يريد أن يقول لفاطمة الممتنعة عليه، أن هذه الفتاة التي تسلب العاقل عقله لحسنها، قد ملكت عليها أمرها وسلمته قيادها لأن أمثالي من تهواه النساء، فلم لا تزالين على تمنعك كما أنى لا أروم عنك تحولا، ولا أصغي فيك لقول عاذل مهما بدا شديداً في تعذاله فصيحاً في أقواله.

تَسَلَّت عِماياتُ الرِجالِ عَنِ الصِبا وَلَيسَ فُؤادي عَن هَواكِ بِمُنسَلِ

ألا رُبّ خَصْمٍ فيكِ ألْوَى رَدَدتُه نصيح على تعذّاله غير مؤتل[٤١]

وهكذا كان شأن امرئ القيس مع النساء لا يقصر على تتبعهن فحوادث الغزل عنده ولا سيما في فترة صباه وقبل مقتل والده حوادث متوالية لا يكاد يفرغ من واحدة حتى يقيم أخرى إلى أن اشتهر بذلك فقيل أغزل من امرئ القيس" [٤٢]، وقد أعانه على ذلك ما كان يتمتع به من شباب وفراغ وهو ابن الملوك وسليل الملوك والجاهلية الذي لم يردعه عن ما هو فيه وازع دين أو خلق، ولعل النساء لم يكن يبادلنه حبا بحب، حتى من كان يرتبط بهم برباط الزوجية، ولعلهن كرهن منه ما تكره المرأة في الرجل، وربما ولد هذا عنده عقدة نفسية إزاء المرأة أدت به إلى التبجح بمغامراته أمامهن ليدلل على أنه جدير بحبهن هذا من جهة ومن جهة أخرى كره المرأة عامةً، وهذا قد دفعه إلى أن يئدَ بناته، كما تقول بعض الأخبار ونلاحظ هنا أن حالة الأنا مازالت أسيرة الحزن والألم والعذاب والشجون، رغم ملامسة الحب لأعماق قلبها، فشكل هذا الحب ورسم للأنا جسرًا من العذاب المتمثل في الهجر والفراق الذى جعل الأنا في معاناة دائمة.

(٤٠) الديوان ص١٠

(٤١)السابق ص١٤

(٤٢) ابن رشيق العمدة. الجزء الثاني .ص١٢٠.

المحور الثاني

الأنا والآخر في معلقة امرئ القيس

إن من أبرز "تجليات الأنا في مظهريتها الذاتية هو تجليها من خلال النظر إلي الآخر بوصفه مقابلًا حيويا منتجًا"(٤٣)، فالنظر إلى الآخر "يعتمد على طبيعة الأنا الناظرة، لذا فالآخر يتجلى في مرآة الأنا استنادًا إلى طبيعة العلاقة التي يؤلفها جدل التفاعل والحوار والصراع بينهما، وربما لا وجود لأنا فاعلة وقادرة على الحضور المنتج من دون الآخر"(٤٤)، ويظهر ذلك في معلقة امرئ القيس من خلال مغامراته الغزلية التي ذكر منها يوم بدارة جلجل، وهى قصة مشهورة في تاريخ الأدب العربي "تدور حول حب الشاعر لابنة عمه فاطمة الملقبة بعنيزة، وكان قد طلبها زمانًا فلم يصل إليها، حتى إذا ارتحل الحى يومًا وتخلفت النساء تخلف معهن، وعندما سرن خلف الركب تبعهن دون أن يشعرن بشخصه، حتى إذا وصلن إلى غدير خلعن ثيابهن ونزلن فيه ليستحممن، فقعد على ثيابهن فخبأها وأبى أن يعطي واحدة منهن ثوبها حتى تخرج، فيراها مقبلة مدبرة، وهكذا خرجت عُنيزة وخرجت صويحباتها، وهو ينظر إليهن، ثم نحر لهن ناقته وأطعمهن وسقاهن الخمر، ومن ثم حملن أمتعته، وبقى بدون ركوبه فحملته عُنيزة على بعيرها فكان يدخل رأسه في هودجها ويقبلها، فيميل ويكاد يسقط على الأرض فتتضايق وتدعو عليه، وتطلب منه أن يترجل، ولكنه يتمادى في غيه ويطلب منها أن تواصل السير ولا تمنعه من جناها العذب"(٤٥) يجعل الشاعر هذه القصة في مقدمة المعلقة بعد الوقوف علي الأطلال، فهو يشير إلى يوم دارة جلجل بقوله:

ألا ربَّ يومٍ لك مِنْهُنَّ صالــح ... ولا سيّما يومٍ بدارَةِ جُلْجُـــلِ

ويوم دخلتُ الخدرِ خدر عنيزة ... فقالت لك الويلات إنكَ مُرجلي

---

(٤٣)السامري وفليح مضحي أحمد، عبدالله شفاء محمد، "تجليات الأنا الشعرية بدلالة الآخر قراءة في شعر فدوى طوقان مجلة مجمع نوفمبر ٢٠١٥ مجلة جامعة المدينة العالمية المحكمة- العدد الرابع" صـ٤.

(٤٤) يوسف زيدان مقال إعادة بناء مفهوم الأنا والآخر الثلاثاء ٢٠١٦/٩/١٦.
WWW.ELAMSRYELYOUMNEWS.COM

(٤٥) دكتور أيوب جرجس العطية رؤية جديدة في معلقة أمرؤ القيس صـ٤.

ضمير المتكلم يعبر عن ذات الشاعر، وهذه الذات أو الأنا كانت في مواجهة الآخر الذي كان بين ضمير المخاطب والغائب، فكان الآخر المخاطب غالبًا وهو فاطمة محبوبة الشاعر، والغائب الآخر هن محبوباته الأخريات من أم الحويرث وأم الرباب وغيرهن من العشيقات للشاعر، ويبدو من الأبيات أن عنيزة أو فاطمة هي الشخصية الرئيسية في غزل امرئ القيس، فهي التي يتردد صداها في جنبات النص حتى النهاية، وما عداها من الشخصيات وإن أخذت حيزًا كبيرًا من غزل الشاعر، فقد ذكرهن لتوسيع رقعة الصورة وللتأثير في نفسية عنيزة ذاتها فإذا اشتكى الشاعر سوء حظه مع فتاة أطلاله وغيرها من النساء كأم الحويرث وأم الرباب فإنه قد حظي بالسعادة مع غيرها من المعشوقات ولا سيما صاحبة يوم دار جلجل فصورة الآخر الغائب الحاضرة هي صورة الراغب المحب للشاعر، إذ تكشف صورهم عما يعتمل في وعيه من صور البطولة والفروسية، بالإضافة إلى أن جماله له تأثير خاص في قلوب العذارى، أما صورة الآخر المخاطب فهي صورة المرغوب فيه، وهي تجسيد للحظة الواقعية الحاضرة موقف المواجهة الذي يقتضي الاعتراف والإقرار فيقول في ذلك:

تقولُ وقد مالَ الغَبيطُ بنا معاً عقرت بعيري يا امرأ القيس فانزلِ

فقُلتُ لها سيري وأرْخي زِمامَهُ ولا تُبعديني من جناك المعلـــــلِ[٤٦]

في هذه الأبيات التي يتحول فيها المتكلم من الأنا إلى الآخر، حيث يصبح الآخر هو المسيطر علي الموقف، فيصبح المتكلم هو الآخر "فالآخر يدخل عنصرًا مقومًا في صميم وجود الأنا وماهيتها، والأنا بذلك لا تكون إلا من خلال توقفها علي الآخر، واستقلاله عنه في وقت واحد" [٤٧]. ومن ثم تغدو الأنا تجليا من تجليات الآخر، فتتجلي الأنا في الآخر (المحبوبة)، ثم تواصل الأنا مع الآخر، وتحث الأنا الآخر علي استمالته ليخرج من معاناته، فنلاحظ فعل الأمر الموجه إلي الآخر، وفعل الأمر الموجه إلى الأنا وهو يفترض أن يكون المخاطب، يقول:

فقُلتُ لها سيري وأرْخي زِمامَهُ ولا تُبعديني من جنـــاك المعلـــــلِ

(٤٦) الديوان ص١١.

(٤٧) محمود رجب .المرأة والفلسفة . حوليات كلية الآداب .جامعة الكويت . ص٧.

أفاطِمُ مهلاً بعض هذا التدلل وإن كنتِ قد أزمعت صرمي فأجملي

وَإنْ تكُ قد ساءتكِ مني خَليقَةٌ فسُلّي ثيـــابي من ثيابِكِ تَنْسُـــلِ

ومَا ذَرَفَتْ عَيْناكِ إلا لتَضْرِبي بسَهمَيـــكِ في أعشـــارِ قَلبٍ مُقَتَّلِ

إن الأنا (لا توجد إلا في مقابل الآخر، فهي لا تشعر بوجودها إلا بوجود الآخر)[٤٨] فتخاطب الأنا الآخر فاطمة وهو "الاسم الحقيقي لعنيزة على رأي الأصمعي"[٤٩] هذه الأبيات تبين لنا مدى حب الشاعر لعنيزة فقد ذهبت بعقله فهذه الأبيات غاية في الرقة والعذوبة عرف القدماء ذلك فيها "فقد ذكر ابن قتيبة أن مجموعة من أشراف الناس والشعراء اجتمعوا عند عبد الملك بن مروان فسألهم عن أرق بيت قالته العرب فاتفقوا على بيت أمرئ القيس" وما ذرفت عيناك "[٥٠] وهو البيت الذي قال عنه الأصمعي: إنه أغزل بيت قالته العرب"[٥١].

وهنا نجد التحول في حال الأنا حيث تتطلبه حالة الهوى التي كانت تكابدها وتعانيها الأنا؛ ولعل هذا البيت يكشف عن ارتباط الأنا بالآخر (المرأة)، لذا فإن الأنا تعمد على استظهار المعاناة على هذا النحو لاسترضاء المحبوبة واستمالتها لكى تستجيب لطلبه، من هنا تشكل المرأة سلطة عاطفية مؤثرة على الشاعر، فهذه الأبيات تصور إحساس الأنا (الشاعر) بالآخر (محبوبته) كيانًا منبثقًا عن مشاعر الأنا ذاتها، فهي جزء لا يتجزأ من بنيته النفسية ودواخله العميقة، وصدامه النفسي معها كان صدامًا مألوفًا ومرغوبًا فيه. كما تظهر الأنا متجلية في الآخر عبر الحوار الذي يسرده لنا الشاعر فيقول:

ويوم دخلتُ الخدرِ خدر عنيزة فقالت لك الويلات إنكَ مُرجلـــــي

تقولُ وقد مالَ الغَبيطُ بنا معاً عقرت بعيري يا امرأ القيس فانزلِ

فقُلتُ لها سيري وأرْخي زِمامَهُ ولا تُبعديني من جناك المعـــــللِ

(٤٨) رنا القنبر الأنا والآخر في الروايات الفلسطينية للكاتب الفلسطيني أمين دراوشة- وزارة الثقافة الفلسطينية- ٢٠١٦ أقلام الديوان WWW.DEWANELARAB.COM.

(٤٩)ابن الأنباري شرح القصائد السبع الطوال صـــ٣٦.

(٥٠)ابن قتيبة الشعر والشعراء الجزء الأول صـ١١٤.

(٥١) ابن رشيق العمدة الجزء الثاني صـــ١٢٠.

وقد نجد هنا أن الحوار القائم بين الأنا والآخر المحبوبة من مستوي الديالوج الذى يفصح عنه رد فعل عُنيزة تجاه سلوك امرئ القيس، وفى مقابل ذلك يأتي حوار الأنا أمرًا مسيطرًا على الآخر، فيتباعد معه التركيز على المحبوبة في الحوار ليحل محله التركيز على ذات المتكلم، فيغدو حضور المخاطب (المحبوبة) حضورًا ضمنيًا مضمرًا في الحالة الوصفية التي تعبر عنها الأنا المتكلمة، عندما تصبح الأنا في حالة من الذاتية التي تطغى عليها صورة المعاناة المرتبطة بين الأنا والمحبوبة، وهذه المعاناة التي تعيشها الأنا معاناة فردية أرادت الأنا من خلالها استمالة الآخر عاطفيًا بصورة تكاد تكون جديدة، من خلال نظرة الشاعر للموضوع برؤية شعرية ذاتية مشحونة بالنظرة الغزلية الفاضحة فيقول الشاعر فاخرًا ومسيطرًا:

فمِثلِكِ حُبْلى قد طَرَقْتُ ومُرْضعٍ فألهيتُها عن ذي تمائمَ محول

إذا ما بكى من خلفها انْصَرَفَتْ لهُ بشِقٍّ وَتحتي شِقُّها لم يُحَوَّلِ

فتحاول الأنا في هذه الأبيات أن تعبر عن ذاتها بوصفها فردًا من أفراد المجتمع فيتحدث الشاعر عن مفاخرة بمغامراته النسائية بأسلوب سردي قصصي مباشر يحاول قول الأشياء بوضوح، ويعنيه أن يصل صوته إلى الآخر، لكي يبرهن لفاطمة التي تتدلل عليه أن تتحقق وتعرف أن مثله يصبى الحسان، إذا يلتهين عن أولادهن فإذ بكوا لم يستطعن الانصراف إليهن لأن بحبه ومشاعره قد سيطر عليهن، وهنا تجعل الأنا هذا الصنيع من مظاهر فخره واعتزازه وإن كان القدماء قد أخذوه عليه، فقالوا كيف قصد للمرضع والحبلى دون البكر وهو ملك ابن ملوك فما فعله هذا إلا لنقص همته، ولعله فعل ذلك لينفي عن نفسه ما قد عرفوا عنه من بغض النساء له "فاختار أن المراضع والحبالى معجبات به وخصصهن دون الأبكار، لأن البكر أشد محبة للرجال وأبعدهن عن الفرك"[٥٢]، يقول:

إذا ما بكي من خلفها انصرفت له بشق وتحتي شقها لم يحول

ويفسر يوسف اليوسف هذا البيت فيرى أن العلاقة مع المرأة عند امرئ القيس هي أكثر من أن تكون إصرارا على رفض العلائق الزوجية واستبدالها بعلائق الإيروس

(٥٢) ابن الأنباري .شرح القصائد السبع الطوال ص٣٦.

الطليقة، فكل شيء في القصيدة يبرهن على حرية هذه الطاقة الغريزية، ويقول معلقًا على المغامرات الحسية "وبذلك لا يبقي لهذه السلسة من المغامرات إلا كونها استمرار للبرهنة الطللية المأزومة، وذلك لأن الأحداث تخفي شعورًا بالعجز يتناسب مع البكاء في المعلقة"(٥٣). وتريد الأنا تبديل حال الانكسار والضعف بحال انتصار، فهو هنا يفتخر بعلاقاته النسائية، ولعل هذا البيت يكشف عن أسرار امرئ القيس، حيث تسعى الأنا إلى اللذة الحسية، ويظهر ذلك من خلال مغامراته مع النساء فيقول:

وبيضةِ خدر لا يرامُ خباؤها	**تَمَتّعتُ من لَهْوٍ بها غيرَ مُعجَلِ**
تجاوزْتُ أحْراساً إلَيها ومَعْشَراً	**عليّ حِراصاً لو يُسرّون مقتلي**
فجِئْتُ وقد نَضَّتْ لنَوْمٍ ثيابَها	**لدى السِّترِ إلاَّ لِبْسَةَ المُتَفَضّلِ**
خَرَجْتُ بها أمشي تَجُرّ وَراءَنا	**على أثَرَيْنا ذَيْلَ مِرْطٍ مُرَحَّـــلِ**
فلما أجزْنا ساحة الحيّ وانتحى	**بنا بطنُ خَبْتٍ ذي حِقافٍ عَقَنْقَلِ**(٥٤)
هصرتُ بِفودي رأسها فتمايلت	**عليَّ هضيمَ الكَشحِ رِيّا المُخَلخَلِ**

هذه الأنا تمتلك قوة ذاتية مركزية، تتحد ذاتيتها وقوتها ومركزيتها دائمًا بدلالة الآخر، ففي هذه الأبيات تتحول الأنا الحزينة المنكسرة السلبية الموجودة على محور الشكوى واستعطاف المحبوبة فاطمة إلى صفات إيجابية، فتصبح الصبابة نعمة، فإن هذا التحول في الصفات من حال السلب إلى حال الإيجاب هو تحول في تجربة الأنا نفسها، فهو يريد أن يخرج من معاناته وسلبيته إلى حالة إيجابية منتصرة، "فيقول قد تجاوزت إلى هذه المرأة الممنعة أسلاكًا شائكة، وحواجز حصينة من الحراس الذين تناذروا دمه لاعتدائه على حريمهم، ومع ذلك فقد تمتع بها تمتع المطمئن، وراح الشاعر يصور أمام فاطمة وغيرها من النساء صورة هذه الفتاة التي تركها ليلًا فوقف أمامها طويلًا كأنه رسام ماهر يقصد إلى تمثال من تماثيل ملكات الجمال، ومن هنا فلم يغادر صغيرة أو كبيرة في جسدها إلا وصفها، وحفره في هذه اللوحة الشعرية فهذه الفتاة طويلة الجيد، غير مرتخية الجسم بيضاء اللون مشوبة بصفرة كبيضة النعام، وهى ذات شعر فاحِم كثيف كأنه كعناقيد

(٥٣) يوسف اليوسف.(١٩٧٥) تحليل معلقة امرؤ القيس . مجلة المعرفة السوريا.عدد١٦٣.١٦٥.
(٥٤) الديوان ص١٤

النخل المتراصة، وقد صنعت منه ضفائر ما بين مرسلة ومثناه، ولها وجه مشرق كمنارة الراهب التي لا تطفئ، وخد ناعم سهل وعيون كعيون المهاة وقد حنت على أطفالها فهو أجمل لنظراتها، وعنق منتصب كعنق الغزال الأبيض، وأما ساقها فأبيض ريان وخصرها دقيق ضامر كأنه خطام البعير يحاكي في صفائه أنبوب نبات البردي بين نخل كريم على أصحابه يتعاهدونه بالسقي والرعاية وذلك أنعم له وأجود، وأصابعها رطبة ناعمة متساوية كالمساويك وهي إلى ذلك مترفة منعمة وذات رائحة طيبة فواحة" (٥٥). وهنا نجد أن التجربة الشعرية استطاعت أن تستوعب خصال المحبوبة، وتضمينها في أبيات المعلقة، وهذه الصفات التي وصف بها محبوبته إنما يستشفها الشاعر من الأنا فهي تنبع من الذات ويجسدها الخيال وما ذاك إلا لرقة هذه الأنا وانصهارها في المحبوبة فتفيض صبابة ووجدا.

وتتجلي الأنا المصورة لموقفها الشعري متفردة بذاتها عن الآخر في إطار عملية توضح بحسب هذه التجليات، على أن التركيز سيكون على الأنا بارزًا في إطار الكشف عن أنماط الآخر، وعلى علاقة تداخلهما معًا، فإننا لا نستطيع بكل تأكيد أن نذكر الآخر، أو نتحسس حضوره في السياق الشعري دون أن تكون الأنا فاعلة في توليده، ومشكلة لكيانه.

فالأنا الشاعرة هي التي شكلت هذا الآخر، بل هي التي أوجدته في النص، فنجد أن امرئ القيس قد ذكر موقفه الشعري وفق نزعة فردية ذاتية خالصة، أي موقف مباشر بين أنا الشاعر والشعر، فهو يحدد موقفه الشعري عبر تجربته وتصويره لحياته ومعاناته الذاتية، ونبدأ بتصوير الأنا المصورة لموقفها من الشعر، لكون الأنا هنا تكشف عن علاقة الأنا الشاعرة بالنص الشعري مباشرة، فيقول في مطلع المعلقة باكيا شاكيا.

قفا نبك من ذِكرى حبيب ومنزل — بسِقطِ اللِّوى بينَ الدَّخول فحَوْملِ
فتوضح فالمقراة لم يَعفُ رسمها — لما نسجتْها من جَنُوب وَشَمْأَلِ
ترى بَعَرَ الأرْآمِ في عَرَصاتِها — وقيعانها كأنه حبّ فلـــفـــل

(٥٥) ابن قتيبة، الشعر والشعراء.ص٣٨,٣٧.

وُقوفاً بها صَحْبي عَليَّ مَطِيّهُمْ يقُولون لا تهلكْ أسىً وتجملي[٥٦]

ويكون موقف امرئ القيس الشعري هنا موقفا مباشرا بين أنا الشاعر والشعر، فحدد موقفه في إطار خطاب موجه إلى صاحبيه، ومن ثمَّ يضعنا امرؤ القيس في البدء أمام تصوير أناه الباكية الشاكية لاحتواء الأنا على الألم وحضور ذلك في النص الإنساني، وحضورها أيضًا في النص الشعري وفضاءاته فتكون الأنا معبرة عن وضعها النفسي والاجتماعي، فهي قد شهدت تغيرات وتحولات الحياة من رحيل محبيه؛ فالأنا هي المصورة، وهى بؤرة الأحداث والأشياء، لأن الأنا هنا تشكل ذات الشاعر، على الرغم من عدم ظهورها صراحة في الأبيات، ولكنها جاءت مستترة تفهم من السياق، فلا تظهر الأنا في النص الشعري إلا في حدود ضيقة محصورة في نطاق ذاتها، ونلحظها في مناجاة الشاعر لنفسه وصاحبيه الذين يشاركانه ويقاسمانه حزنه، حيث لا يمكن النظر إلى الأنا متجردة من الآخر، فالآخر بارز في النص الشعري مع الأنا؛ لأن الأنا تشكل المحور الرئيس في العلاقة الثنائية بين الأنا والآخر، فاستطاعت الأنا الشاعرة أن ترسم العديد من صور الآخر.

ونخلص من هذا الكشف إلى أن هذه النماذج بينت معاناة الأنا الشاعرة وآلامها وحزنها ومتاعبها التي تتلقاها جراء ممارساتها الشعرية، فالكيان الشعري كله يقوم على معاناة الأنا الشخصية بسبب وضعها ونتيجة القمع والاضطهاد الذى تلقاه الشاعر من والده الذى طرده لتشبيبه بالنساء وهذا غير مقبول عند العرب ومحبوبته التي استعصت وتمنعت عليه، كما تتجلي الأنا متفاعلة مع غيرها من الضمائر الأخرى فيقول الشاعر ملتاعًا.

(وقوفا بها صحبي علي مطيهم يقولون لا تهلك أسي وتجملي)

وإن شفائي عبرة مهراقة فهل عند رسم دارس من معول؟

ويتضح من خلال سياق هذين البيتين أن الأنا أشبعت ذات الشاعر شكوى وحزنا، فبينما يبدو الآخر صاحبًا أو صديقًا وتستقر عينا الشاعر فيه طالبًا المواساة، سرعان ما

(٥٦) الديوان ص١٠.

ينحرف عن مساره غارقًا في بركة أحزانه الموجعة فالأنا متداعية متهالكة في نزعتها الفردية المنعزلة.

وتظهر الأنا متجلية في الآخر عبر الحوار الذي تسرده الأنا الشاعرة التي تبدو الأنا من خلاله متفاعلة مع غيرها من الضمائر الأخرى، غير مستغن عنها تحتاجها وتحتاجه، وهى غير حاضرة إلا بحضوره فيقول:

ويَوْمَ دَخَلْتُ الخِدْرَ خِدْرَ عُنيَزةٍ فَقَالتْ لَكَ الوَيْلاَتُ انّكَ مُرْجِلِي

تَقُولُ وقَدْ مَالَ الغَبِيْطُ بِنَا مَعاً. عَقَرْتَ بَعِيْرِي يَا امْرأُ القَيْسِ فَانْزِلِ

فقلت لها سيري وأرخي زمامه. ولا تبعديني من جناك المعلل(٥٧)

(٥٧) الديوان ص١٣

المحور الثالث:

الأنا وتداعي الذكريات في معلقة امرئ القيس

تحاول الأنا أن تجد لها مخرجًا من معاناتها وشعورها بالاغتراب والوحدة والعزلة، وتتولد هذه المعاناة من الحب الذي ينشده الشاعر في فاطمة ابنة عمه التي تمردت ورفضت حبه فذخرت المعلقة بصور انكساره أمامها وانتصاراته وافتقاره ومغامراته أمامها مع عشيقاته مهتما بتفاصيل المغامرة فكان شعره يتصف بالفجور ويبتعد عن الطهر والعفاف فهو أقرب إلى الفحش، واقترن ذلك بمعاناته مع والده الذي طرده لتشبيبه بالنساء، فجاءت نظرة الأنا لذاتها عميقة كاشفه عذابها وأحزانها عبر تداعى الذكريات فيقول الشاعر معبرًا عن حالة الأنا:

قِفَا نَبْكِ مِنْ ذِكْرَ حَبِيبٍ ومَنـــزِلِ بِسِقْط اللّوَى بين الدّخُول فَحَوْمَلِ
فَتُوْضِحَ فَالمِقْراةِ لمْ يعْفُ رَسْمُها لِما نَسَجتْهَا مِنْ جَنُوبٍ وشَمَالِ
تَرَي بَعَرَ الأرْآمِ في عرصاتهـــا وَقِيْعَانِهَا كَأَنّه حَبّ فُلْفُـــــــلِ
كأنّي غَدَاةَ البَيْنِ يَوْمَ تَحَمّلـــوا لَدَي سَمُراتِ الحَيّ نَاقِفُ حَنْظَلِ[٥٨]

هنا تتداعي الذكريات على الأنا من خلال وقوفها على الأطلال وتذكر الذات بالأحبة والأهل، فتندلع في ذاكرة الأنا مشاهد الحزن واليأس لتشكل سمة من سمات الشاعر، فالقارئ لمعلقة امرئ القيس يجد نفسه "أمام سيل من الدموع، ودفق من الهموم، وجبال من المصائب، وحبائل مقطوعة من الوصال والهجر" [٥٩]). وتنتقل الأنا المأزومة من حالة الحزن التي قضتها في تذكر الأحبة إلى حالة مغايرة بالفرحة التي تتداعي عليه ذكريات الماضي الجميل مع عشيقاته من النساء، فهو يلمح إلي قصة حب عاشها مع عشيقاته، فهذا شأنه معهن مع أم الحويرث وأم الرباب وفلانة التي لم يسميها فجميعهن يغرينه بالآمال الخوادع حتى إذا جاء لا يجد شيئا، وهكذا هو في هم وحزن، وهذه الأبيات

(٥٨)الديوان ص١٠.
(٥٩) محمود محمد أسد.(٢٠١٤).ملامح الحزن في المعلقات الجاهلية. ميدل ايست أونلاين .حلب .٢٠١٤/١٠/١٩م.

توضح طبيعة حب الشاعر وعلاقته بالنساء فكانت الأنا في معاناة وشكوى، ولكن ذلك كان تنفيسًا عن حالته.

كَدَأْبِكَ مِنْ أُمّ الحُوَيْرِثِ قَبْلَهَـــــا وَجَارَتِهَا أُمّ الرّبَابِ بِمَأْسَـــــــــلِ
إِذَا قَامَتَا تَضَوّعَ المِسْكُ مِنْهُمَـــــا نَسِيْمُ الصّبَا جَاءَتْ بِرَيّا القُــرنْفُـلِ
ألاَ رُبّ يَوْمٍ لَكَ مِنْهُنّ صَالِـــــــحٍ وَلاَ سيمّا يَوْمُ بِدَارَهِ جُلْـــــجُـــــلِ
ويَوْمَ دَخَلْتُ الخِدْرَ خِدْرَ عُنَيـــــزَةٍ فَقَالَتْ لَكَ الوَيْلاَتُ إنّكَ مُرْجِلِـــــي
تَقُولُ وقَدْ مَالَ الغَبِيْطُ بِنَا مَعـــــاً عَقَرْتَ بَعِيْرِيَ يا امْرأ القَيْسِ فَانْزِلِ
فَمِثْلِكِ حُبْلَي قَدْ طَرَقْتُ ومُرْضِـــعٍ فَألهَيْتُهَا عَنْ ذِي تمَائَمِ مُحّـــــوِلِ
إذا مَا بَكَي مِنْ خَلّفِهَا أنْصَرَفَتْ لَهُ بِشَقّ، وتَحْتِي شِقّهُا لَمْ يُحَـــــوّلِ
إلَي مثْلِهَا يَرْنُو الحَلِيْمُ صبابـــــة إذَا مَا اسْبَكَرّتْ بَيْنَ دِرْعٍ ومِجوَلِ(٦٠)

وفي هذه الأبيات تتذكر الأنا أيام اللهو والصبا مع عشيقاتها، حيث تنفتح الذاكرة الشعرية للأنا علي مشهد الماضي الجميل لذات الشاعر التي كانت في الماضي تتمتع وتلهو مع النساء، فعبرت الأنا عن ذلك عبر لغة شعرية رومانسية جعلتها تعيد إنتاج الحكاية من خلال الذاكرة التي تعمل على استثارة ماضي الأنا لمضاعفة عذابها وتشبثها بالعودة إلي هذه الأيام، فهو يفتح خزائن الذاكرة من أجل أن ينهل الخطاب الشعري منه صوراً متعددة للأنا قابعة في مركز الذاكرة.

وتتذكر الأنا رحلات الصيد التي كانت تقوم بها مع الحصان الذي جاء وصفه خيالياً راسماً ملامح الأنا فيقول:

وَقَدْ أغتِدي والطّيْرُ في وكُناتِهَـــا بمَنْجَرِدٍ قَيْدِ الأَوَابِدِ هَيكَـــــــــلِ
مكرّ مفرّ مُقبل مُدبرِ معـــــــــا كَجُلْمُودِ صَخْرٍ حطّهُ السّيْل مِنْ عَلِ
كُمُيْتٍ يَزِلّ اللّبدُ عَنْ حَالِ متْنِـــه كَمـــــا زلّتِ الصّفْوَاءُ بِالمُتنَزّلِ
مِسحّ إذَا مَا السّابحَاتُ عَلَي الوَنيِ أثَرْنَ الغَبَارَ بِالكَدِيْدِ المتركّـــــلِ
علي الذبل جياش كأنّ اهْتزَانـــهُ إذَا جَاشَ فيْه حمَيْه غَلْيُ مِرْجَـــلِ

(٦٠) الديوان ص١٢.١٣

يزل الغُلاَمُ الخِفّ عن صَهَوَتـــــهِ وَيُلْوِي بأثْوابِ العَنيفِ الْمُثقّـــلِ

دَريْرٍ كخُذْرُوفِ الوَلِيْدِ أمَـــــــرّهُ تقلب كفّيهِ بَخَيطٍ مُوصّـــــــــل

لَهُ أيْطَلا ظَبْيٍ وَسَاقَا نعَامَـــــــة وإرخَاءُ سَرْحَانٍ وَتْقْرِيْبُ تَتفـــل[٦١]

في هذه الأبيات جاءت نظرة الأنا لذكرياتها في الماضي متجهة إلي الصحراء وإلى فضائها في اللا حدود، فكان يعين كل شيء فيها، ويرى الأشياء مباشرة ويتحدث عنها كما يراها ويصف ما فيها فكان الشاعر الجاهلي يحمل وعيًا تلقائيًا بحريته فكان يعبر عن اللحظة الآنية، وتنتقل الأنا إلى وصف رحلات الصيد ووصف فرسه الذي يبكر به للصيد، قبل استيقاظ الطيور فيصوره في مشهد كأنه من مشاهد الرسم، فهو فرس أجرد سريع، يقيد الأوابد الوحوش، إذا انطلقت في الصحراء فإنها لا تستطيع الإفلات منه، وهو ضخم الجسم، شديد الحركة، كثير الكر والفر إذا أراد منه ذلك، فالصفتان مجتمعتان فيه في آن واحد لسرعته، حيث شبهه في سرعته وصلابته بجلمود صخر يهوي من ذروة جبل عال، ولخفه حركته وسرعته لا يستطيع الغلام الخفيف امتطاء صهوته، لأنه يرمي به لسرعة عدوه وشدة اندفاعه، وإذا ركبه ثقيل البدن لا يكاد يستقر علي ظهره حتي تتطاير أثوابه، ويوشك أن يطيح به، كما أن هذا الجواد يمتاز برشاقة الجسم، فخاصرتاه مثل ظبي، وساقاه مثل النعامة القوية، فإذا عدا فهو كالذئب يرخي قوامه في غير عنف، أو كالثعلب الذي يقارب بين يديه ورجليه في جريه، وما هذا الوصف المتخيَل للفرس إلا ليخفف الشاعر من أحزان الأنا ويضفي عليها قدراً من السعادة.

وتناول امرؤ القيس وصف حصانه في ميدان العمل فيقول:

فَعَنّ لَنَا سِرْب كَأنّ نِعَاجَـــهُ عَذَارَى دَوَارٍ فِي مُلاءٍ مزَيل

فَأَدبَرْن كَالجِزْعِ المفُضّلِ بَينهُ بِجيْدٍ مُعَمّ فِي العَشْيرَةِ مُخولِ[٦٢]

(٦١) الديوان ص١٩

(٦٢) الديوان ص٢٢

في هذه الأبيات تفخر الأنا بفروسيتها، وإن كان هذا الفخر مستترا خلف وصفه للحصان الذي تظهر كفاءته في اقتناص الفريسة والعدو خلف الوحوش، وقد مهد الشاعر لمشهد الصيد في هذا البيت فيقول:

فبَاتَ عَلَيْهِ سَرجَهُ ولجامَهُ وبَاَتَ بعَينِي قَائِماً غَيَر مرْسَلِ (٦٣)

هنا نجد وصف الحصان معادلًا لهذه العملية من حيث كونه بات قريبًا منه مسرجًا ملجمًا ليغادي عليه الوحوش في الصباح الباكر "ومشهد الصيد عند الشاعر ينقسم قسمين قسم يصف حال الحصان أثناء الصيد، وقسم يصفه بعده، وهكذا كان الحصان هو الشخصية الرئيسية في هذه العملية، على أنه البطل الذي تدور عليه أحداثها" (٦٤). فهذه الأحداث بدت بظهور مجموعة من البقر الوحشية كأنها العذارى في الثياب الطويلة يطفن حول صنم دوار، وقد بدا منظر الأبقار رائعًا جميلًا، وهذه الصور الجميلة التي يقتنصها الشاعر هي ردة فعل من الشاعر في محاولة منه لإسعاد تلك الأنا الحزينة المنكسرة. وتفخر الأنا في البيت التالي بما حققته من نصر في الصيد، حيث إنه اصطاد على حصانه فى طلق واحد ثورا ونعجة دون أن يظهر عليه أثر للتعب، وهذا دليل على نجابته وأصالته، ونجحت الرحلة وقام الصحاب يتمتعون بأطايب هذا الصيد من بين مطبوخ ومشوي.

فظل طُهاةُ اللّحْمِ مِنْ بَيْنِ مُنْضِجٍ صَفِيفَ شِوَاءٍ او قديْرٍ مُعجّلِ(٦٥)

وإذا كان الحصان قد قام بعملية الصيد خير قيام دون أن يجهد نفسه فكانت حالته كذلك بعد العملية راح ينفض رأسه مرحًا ونشاطًا يملأ العين بمنظره الجميل فيقول:

ورُحْنَا ورَاحَ الطّرفُ ينفض رأسه مَتَى ما تَرْقّى العَيْنُ فِيْهَ تسفّلِ (٦٦)

من خلال معلقة امرئ القيس نراه يكثر من وصف الحصان في شعره بصور تكاد تكون معانيها وألفاظها واحدة.

(٦٣) الديوان ص٢٢
(٦٤) علي حسين العتوم . شرح المعلقات العشر ص٣٠٥،
(٦٥) الديوان.٢٤
(٦٦) الديوان.٢٢

تبدو الأنا من خلال النص مترفة لاهية، لكنها لا تخلو من هموم وأحزان، حيث تبدو الأنا الحزينة متذكرة للماضي ساردة للعديد من الأحداث، منفعلة ومتألمة وحزينة حائرة ممزقة بين العديد من الأحاسيس، فتبدو الأنا تحت صعوبة التذكر متأسفة على حالة النسيان، فهو شاهد علي الكثير من الأحداث ومع ذلك يعترف بضعفه وعجزه مصرحًا بدواخله وأفكاره في صدق، فصورت الأنا الحزينة البيئة تصويرًا دقيقًا، فتبينت ملامح الأنا من خلال المواضع التي تنهض فيها بسرد الأحداث، فتكون الأنا خبيرة بالخيل وصفاتها، فهو نشط يخرج للصيد مبكرًا، وله أصدقاء يقضى معهم بعض الوقت في اللهو والمتعة "فالنص به بعض الإشارات الدالة على بيئة الشاعر منها خروج الشبان اللاهية المرحة إلي الصيد ومعهم الطباخون، كما تظهر بعض ظواهر الحياة الدينية في ذلك العصر من عبادة الأصنام وطواف العذارى حولها في ثياب معينة، وفي ذكر بعض الحيوانات ما يدل على معرفة الجاهليين لها وخاصة الحصان الموصوف بدقة لما له من دور مهم في حياتهم في السلم والحرب" [٦٧].

وأخيرًا تمثل المعلقة أهم قصائد الديوان كله حيث تجسد الأنا آلامها ومعاناتها شاكية وباكية موضوع الدراسة فكل ما سبق صورة للمعاناة جسدتها الأنا الحزينة "لتكون التجربة الشعرية قد عبرت بصدق عن تجربة الشاعر الذاتية" فالشاعر الجاهلي كان يسعى لأن يخوض غمار الشيء ويتعرف عليه من خلال التجربة، فكان يحب التجربة قبل أن يعبر عنها، وهي ليست تجربة فردية فحسب، بل تجربة اجتماعية تعيش في الضمير وتحكم السلوك "[٦٨] لذلك تغرى جماليات القصيدة الجاهلية في التعرف على واقعه حقيقية صورتها تجربة صادقة خاضها الشاعر، وإن أعطي لها بعدًا تصويريًا وجماليًا في الكتابة الشعرية.

وقد انتبه بعض الدارسين إلى هذا التشابه الكبير بين قصائد الديوان، وتنتشر بين قصائد الديوان جمل مهمة تربط بين العجز الحالي ومظاهر الفترة السابقة" [٦٩] كل ذلك

(٦٧) أبو عبد المحسن نجيب الجزائري.(٢٠١٤).دراسة أدبية في معلقة امرؤ القيس تحليل وشرح مع دراسة أدبية. شبكة الإمام الاجري. ٤مايو٢٠١٤م الساعة ٨ مساء.

(٦٨)إحسان سركيس،(١٩٧٩) مدخل إلي الأدب الجاهلي.ط١. بيروت . دار الطليعة للطباعة والنشر.ص١١٢.

(٦٩) إبراهيم دسوقي. قراءة جديدة لمعلقة امرؤ القيس .القاهرة. دار الفكر العربي.د.ت.ص٤٣.

شكل معاناة الأنا داخل النص الشعري فكل ما ظهر من حزن في المعلقة وما بطن منها يشكل علامة مميزة وشهادة موثقة تثبت قدرة الشاعر الجاهلي علي التعبير عن الأنا، وهذه إحدى سمات الشعر الحقيقي، فاحتفت المعلقة بالحزن فكان له قاموسه الذي حوي مفردات ترسم بالحروف مجاري الدموع وندبات القلوب "(٧٠) فتندلع في ذاكرة الأنا مشاهد القهر والضياع والعذاب لتشكل في النهاية هذا الخطاب الشعري التي أرادت توجيهه إلي محبوبته التي ترفض حبه، إلا أن هذه الأنا المعذبة في هذه اللحظة الشعرية الخاطفة قد أثقلتها الهموم والمشاكل النفسية والاجتماعية فالأنا تتأثر بأوضاع داخلية مصدرها الذات والتعلق بالماضي، فجاءت حالات الأنا داخل المعلقة معبرة عن الذات الشاعرة فوردت محبة وباكية في مطلع المعلقة ولاهية وشاكية همومها في مواضع أخرى، وأيضًا منكسرة ومنتصرة في مواضع وبذلك تكون المعلقة قد شكلت ملامح وحالات الأنا.

المحور الرابع

الشكل الأسلوبي للأنا في معلقة امرئ القيس

الأنا الشعرية" هي ذلك الضمير الشعري الحاضر بصور مختلفة في النص الشعري ليحقق الوعي الذاتي داخل النص، ويظهر بضمير المتكلم أو المخاطب أو الغائب، إنه مجموعة الضمائر التي تنشدها الوحدة فيما بينها لتشكل في نهاية الأمر مفهومًا كليا عامًا للأنا الشعرية داخل النص ليصبح لكل نص شعري أناه الشعرية التي تتحدد من خلال تفاعل تلك الضمائر داخل النص "(٧١). فكان حضور ضمير المتكلم مكثفًا، وتجلي ذلك في سيطرته علي النص الشعري في المعلقة، وهو بذلك رسخ رؤية الأنا في التجربة الشعرية، حيث إن الأنا الشعرية التي وردت في معلقة امرئ القيس أنا فردية تميل إلى ترسيخ مفهوم الذاتية التي انفصلت وتفتت عن الجمع، فهو غير مُتَخلَّق بأخلاق الكل، فتحول من الضمير المتصل بالكل إلى ضمير منفصل عن الجمع فكانت الأنا أنا فردية، يقول:

كأني غَداةَ البَيْنِ يَوْمَ تَحَمَلّـــوا ... لدى سَمُراتِ الحَيّ ناقِفُ حنظــلِ

وإنَّ شفائي عبرةٌ مهراقـــــــة ... فهلْ عند رَسمٍ دارِسٍ من مُعــوَّلِ

فَفاضَت دُموعُ العَينِ مِنّي صَبابَةً ... عَلى النَحرِ حَتّى بَلَّ دَمعِيَ مِحمَلي

(٧٠) إحسان سركيس. (١٩٧٩) مدخل الي الأدب الجاهلي . ص١١٢،

(٧١) عباس يوسف الحداد. تجليات الأنا في شعر بن الفارض .ص١٩٦,١٩٥.

ألا ربَّ يومٍ لك مِنْهُنَّ صالـــــح ولا سيّما يومٍ بدارَةِ جُلْجُـــــلِ

ويوم عقرتُ للعذارى مطيتـــي فيا عَجَباً من كورِها المُتَحَمَّـــلِ

من خلال هذه الأبيات يتضح لنا أن ياء المتكلم هي الأكثر حضورًا وتجليا فقد أنابه عن ضمير المتكلم المنفصل للأنا على مستوي النص، وتبدو الأنا الشعرية الحزينة في حالة متأزمة، لما يحيط بها من آلام وبؤس وحزن، فالمتأمل في معلقة امرئ القيس يجد أنها غوص في شجن الذات وفي آمالها وآلامها يتخللها موقف شعوري عام تتقابل لوحاته وتتراسل ليمنح القصيدة حركة ويبعدها عن الرتابة والسكون؛ ففي هذه الأبيات نجد أن الموقف الشعوري الذى تنبعث منه القصيدة هو الإحساس بالضعف والانكسار والألم والمعاناة، على فقد الأحبة وزوال دولة كندة وفقده لملكه وملك أبيه، ومطاردة المنذر بن ماء السماء له حتى وصل القسطنطينية كان سببًا في هم وبؤس الأنا، ويفسر دكتور جواد علي" أن مطاردة المنذر لامرئ القيس كان أعنف شيء أصاب الشاعر بعد مقتل والده، فامتلأت نفسه بالتوتر والضيق ويصل به الإحساس بالعجز حدا عطل قدرته على تجاوز وضعه المتأزم، ولم يجد سبيل ينتهجه إلا الحلم الذى تتمثل فيه القوة والانتصار ليعوض ما افتقده من قوة تمكنه من تحقيق ما يصبوا إليه، وليس الموقف الشعوري هو أزمة جنسية عميقة كما يتصور بعض الكتاب """[٧٢] فتحمل الأبيات دلالات خيبة الأمل وتواصل الأذى واشتداد الانكسارات، فالأنا حملت دلالات الوحدة وفقدان الأمل وكثرة الأعداء ومداومة البكاء، من هنا نجد أن التجربة الشعرية عند امرئ القيس وسيرورة الأنا داخل النص، قد شكلت معاناة الشاعر وحزنه وألمه الذى يكابده، وظهر ذلك في تجربة الأنا الشعرية التي كشفت لنا جوانب وأسرار الأنا الذاتية، حيث إن الذى يزيد من شدة حضور المعاناة عند الشاعر، ويجعلها أكثر عمقا في التجربة، هي سعي الأنا الشعرية إلى التودد لمحبوبته، ومن هنا تنطلق المعاناة فيقول:

أفاطِمُ مهلاً بعض هذا التدلل وإن كنتِ قد أزمعت صرمي فأجملي

وَإنْ تكُ قد ساءتكِ مني خَليقَةٌ فسُلّي ثيابي من ثيابِكِ تَنْسُـــــلِ

أغَرّكِ مني أنّ حُبّكِ قاتِلـــي وأنكِ مهما تأمري القلب يفعـــل

(٧٢) أيوب جرجس العطية. رؤية جديدة في معلقة امرؤ القيس.ص٦.

ومَا ذَرَفَتْ عَيْناكِ إلا لتَضْرِبي بسَهمَيكِ في أعشارِ قَلبٍ مُقَتـــــلِ(٧٣)

يرجع الحضور المكثف لياء المتكلم هنا إلى سعى الأنا منذ البداية نحو التقرب للمحبوبة وكسب عطفها ورضائها، ومن ثمَّ أرادت الأنا المتكلمة أن توصل رسالة بتوسلها للآخر حتي ذرف الآخر الدموع، ولكن الأنا المتكلمة تتيقن وتعرف ما وراء الدموع فهي دموع غير حقيقية، ومن ثمَّ نجد أن الذات في معاناة بسبب انصراف المحبوبة ورفضها لحب الشاعر، فهذه الأبيات تصور حال الشاعر الذى يرجو ويتوسل محبوبته فاطمة الملقبة بعنيزه، فالأنا في معاناة وشكوى دائمين، حيث يبدأ الشاعر بالحديث عن الذات قبل أن يلجأ إلى التكلم عن الآخر، فهو يضع المتلقي في موقع الاستقبال لبوحه الأول الصادر عن الأنا المعبر عنها، وهذه المعاناة تكشف لنا عن ألم الشاعر وضعفه وخضوعه أمام محبوبته فهي تمثل الركيزة التي تقوم عليها تجربته الشعرية.

(٧٣) الديوان ص١٤

الخاتمة:

تبيّن لنا مما سبق من عرض وتحليل ودراسة في محاور هذا البحث (الأنا في معلقة امرئ القيس) النتائج التالية:

- تجلت (الأنا) في معلقة امرئ القيس في نوعين، الأولى: (الأنا) الحزينة المنكسرة المتألمة، والأخرى: (الأنا) المحبة العاشقة العابثة. وهذه الأنا تمثل الواقع الاجتماعي الذي عاشه امرؤ القيس في حياته.
- تمثّل (الآخر) في (محبوبة امرئ القيس، ومعشوقاته، وأصدقائه)، وذلك من خلال الحوار بين (الأنا) الشاعرة (ضمير المتكلم) والآخر(ضميري الخطاب والغائب). وكانت المحبوبة هي (الآخر) المركزي؛ لكونه أتعب الشاعر وجلب له هما وحزنا، بينما (المعشوقات، الأصدقاء) آخر فرعي؛ فقد أراد الشاعر من خلال (المعشوقات) استمالة الآخر المركزي، وأراد من خلال (الأصدقاء) الاستعانة بهم في حزنه الذي جلبه الآخر المركزي.
- مثلت الذكريات في معلقة امرئ القيس نظرة (الأنا) إلى ذاتها، وهي نظرة عميقة تكشف أحزانها وآلامها وحبها ولهوها وفروسيتها.
- مُثّل الضمير (ياء المتكلم) بحضور مكثف الأنا في المعلقة كاشفا عن كونها (أنا) فردية تميل إلى ترسيخ مفهوم الذاتية التي انفصلت عن المجتمع.